اعداد: ماري حدشيتي

بين الشهادة والاستشهاد مبادىء وقيم !

أن نشهد لله عز وجل أمر الإيمان.

أن يخلص المرء لمبدأ أو عقيدة امر إلزامي، كي يتجنّب تجاذبات الواقع في عالم التناقضات.

لكن غالباً ما يعزى الضعف الى جنوح الفكر واغواءات الحياة العصرية.

نادراً ما نرى ان احدا استطاع بسعة فكره وحنكته ان يطال اجزاء من الحقيقة، تقود في النهاية الى تحقيق الغاية المنشودة، سوى قلة من القادة المختارين أو بعض من المعلمين الحكماء الأجلاء، الذين كرّسوا حياتهم لأجل خدمة الإنسان، فازدادوا شموخاً وعظمة كلما تعاظمت تضحياتهم التي تخدم المبادىء الإنسانية المرتكزة على مبدأ العطاء العام.

فالمرء عادة يضحي باوقات عزيزة طامعاً للوصول الى مراكز مرموقة. وكثيرون يضحون بالغالي والنفيس ليردوا عن أنفسهم علة ما أو بغية تحقيق أمنية معينة. لكن ان يضحي الإنسان بنفسه في سبيل تطوير وعي الآخرين أو من أجل تحرير أرضه من المحتل الغاصب فتلك أسمى مراتب التضحية. لأن من ضحى بحياته لإرشاد الآخرين الى سبل التحرر من الغطرسة والاحتلال يكون قد حقق المرام.

مرسلون كثر ضحوا بانفسهم من أجل اعلاء شأن الانسانية، وأبطال مقاومون من لبنان ودول عربية دونوا في تاريخ البشرية معنى الشهادة فاصبحوا قدوة يحتذى بها.

سيرة الأبطال الشهداء ملأى بالقيم والأخلاق والصدق لرسالتهم وعقيدتهم، لانها تنبع من صميم ايمانهم بهدف التحرير، سواء كان تحريراً لأجل طرد الغزاة المحتلين او لأجل طرد العقائد البالية المتزمتة التي تحجّم الإنسان.

ذبيحة الجسد كما كان يحدث قديماً عند الوثنيين في سبيل إرضاء آلهة وهمية، يعتبر عملاً إجرامياً بعيداً كل البعد عن معاني التضحية. فالتضحية الحقة تتطلب مبدأ وعقيدة تثبت نفسها في الآخرين، سواء كانت تضحية بالمال او حتى بالروح. فمن أخلص لعقيدة او لرسالة او لحب ضحى بالغالي والنفيس وربما بحياته اخلاصاً لهذا الحب الكبير الذي يكنه سواء لوطنه او لرسالته في الحياة. فقد ضحى ليضحي شهيداً، شهيداً لأجل خير الإنسانية.

كتاب الانسان منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء ـ الايزوتيريك ذكر ما يلي: «القائد من يملك الحكمة ـ الروح، والمقود من يملك المعرفة والقوة ـ النفس والعقل».

هؤلاء القادة مهما عصفت بهم رياح الموت، او تذوقوا مآسي الالم، نراهم يزدادون تشبثاً وايماناً بهدفهم لأنهم اهل حكمة يعرفون حسن الاختيار. ومهما لوعتهم مكائد الخونة والاشرار تشبثوا اكثر واكثر بعقيدتهم، لأن الهدف صار عقيدة ورسالة، فاصبح سبباً لاستمرارية الحياة فإن غاب الهدف، بطلت الحياة! وهذا مبدأ قويم، لان من يحيا على هذا النحو يغدو كإنسان مائت، حتى وان لم يزل يعيش بالجسد. فحركة الجسد لا تعني اطلاقاً دليلاً على استمرارية الحياة. بل غيبوبة قسرية، على أمل ان يصحو النائم من غيبوبته.

إن الشهادة للهدف الحق والعمل على تحقيقه، هي ما تشير الى استمرارية الحياة في صاحبها.. حتى وإن مات او استشهد من اجل قيمه ومبادئه الانسانية..

الحياة الحقة الكريمة لا تستمر الا بالاخلاص والعمل الدؤوب للهدف، فمن يحيا دون عقيدة او هدف فليبحث فوراً عما ينقص حياته، والا لأصبح كنبتة عوسج لا تقدم إلا القباحة والشؤم. فلنسارع لنكون اناساً يحملون رسالة ومنهجاً وهدفاً، يشهدون لهم بالحق والخير والعمل.

كم من العظماء الكبار تحولوا الى مثل عليا بفعل عطاءاتهم وتضحياتهم فخلدهم التاريخ، بينما كثر غيرهم همشهم المجتمع وقزّمهم بسبب خوفهم وعدم إخلاصهم لرسالة الحياة!

فلنسع لنكون كباراً عظماء من خلال تطورنا في الوعي وانتهاجنا لطرق حياتية صائبة مهما كبرت التضحيات. عوض من ان نكون صغاراً يتلهون بقشور الحياة.

المهندس طوني عبد النور
أستاذ في الجامعة اللبنانية